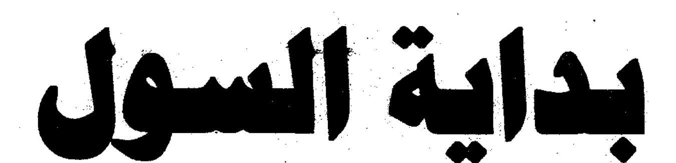


في

تفضيل الرسول

تأليف

الإمام عز الدين بن عبد السلام
المتوفى سنة ٦٦٠ هجرية

******

صححه وعلق حواشيه

أبو الفضل عبد الله الصديق الغمارى

الطبعة الرابعة
١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣م

الناشر



تأسست ١٩٣٥م



رقم الإيداع بدار الكتب
٤٩١٩ / ٢٠٠٦
الترقيم الدولى I.S.B.N
٩٧٧-٤٠١-٠٢٣-X

خاصة بمكتبة القاهرة
لصاحبها: على يوسف سليمان وأولاده
١٢ شارع الصنادقية بالأزهر ت : ٢٥٩٠٥٩٠٩
١١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر ت : ٢٥١٤٧٥٨٠
جوال: ٠١٢٢٢٧٥٠٩٤٢
رمز بريدى ١١٥١١ ـــ الأزهر ـــ القاهرة
Alqahirah٥٥@yahoo.com - Tarekali٥٩@yahoo.com
جمهورية مصر العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــــة

الحمـد لله رب العـالمين، والصـلاة والسـلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وآله الأكرمين، ورضى الله عن صحابته أجمعين ..

وبعـد : فقـد تكونـت برياسـتى لجـنة لنشـر الرسائل النادرة من رسائل السلف الصـالح، وإظهـار دفائن كنوزهم، ووكل إلى أعضاء اللجنة اختيار ما يصلح منها للنشر قبل غيره، فوقع اختيارى على رسالة (**بداية السول فى تفضيل الرسول**) ﷺ .

ورأيـت أن البدء بها أصلح وأنجح، لما فيها من التبرك بذكر بعض فضائل النبى ﷺ وخصائصـه، ولأن مؤلفهـا إمام عظيم أجمع العلماء على إمامته وفضله وورعه، وهو مـن العـلماء الأفـذاذ الذيـن جمعـوا بـين الجهاد بالسيف واللسان والقلم، جاهد الكفار وحـارب المبـتدعة، ونـاهض الملـوك الفسـقه، وكان لا يفتر ولا ينى فى الأمر بالمعروف والـنهى عـن المـنكر، فأجمعـت الخاصـة والعامـة على حبه وتقديره، إلى غير ذلك من البواعث والأسباب، وقد عنيت بتخريج ما فى الرسالة من الأحاديث والآثار، وبإيضاح ما أشار إليه مؤلفها من الأبحاث العلمية فى غضون كلامه .

والله المسـئول أن يتقـبل عملـنا، بـبركة نبـيه ﷺ ويجعله خالصاً لَه، ويوفقنا وينجح مساعينا، إنه أكرم مسئول .

أبو الفضل

عبد الله الصديق الغمارى

بسم الله الرحمن الرحيم

ترجمة المؤلف

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى، والشكر له على ما أولى من نعم سابغة وأسدى، نحمده سبحانه وهو الولى الحميد، ونتوب إليه جل شأنه وهو التواب الرشيد،ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة نستجلب بها نعمه، ونستدفع بها نقمه، وندخرها عدة لنا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، ونشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله، وصفيه من خلقه وخليله، جعله نبياً وآدم منجدل فى طينته، ونور الوجود يوم مولده بنور طلعته، وعم برحمته العالم حين بعثته، واختص بالشفاعة العظمى لإظهار فضله فى ذلك الموقف العظيم ﷺ وعلى آله نجوم المهتدين ورجوم المعتدين، وغيوث الندى للعفاة المجتدين، ورضى الله عن صحابته الأبرار، الذين قاموا بحق صحبته وحفظ شريعته، وتبليغ دينه إلى سائر أمته، وكانوا خير أمة أخرجت للناس كما وصفهم القرآن الكريم .

أما بعد : فهذه تعليقات وجيزة مفيدة، كتبناها على رسالة (**بداية السول فى تفضيل الرسول**) تأليف الإمام المجتهد شيخ الإسلام، سلطان العلماء (**عز الدين عبد العزيز بن عبد اسلام بن أبى القاسم ابن حسن بن محمد بن مهذب السلمى ابن محمد**) ترجمة الذهبى فى العير وقال فى حقه : بلغ رتبة الاجتهاد، قدم إلى مصر من الشام فأقام بها أكثر من عشرين سنة آمر بالمعروف ناهياً عن المنكر يغلظ على الملوك فمن دونهم وله فى ذلك مواقف مشهودة، ولما دخل مصر بالغ الحافظ المنذرى فى الأدب معه وامتنع عن الإفتاء لأجله، وقال كنا نفتى قبل حضوره أما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين فيه اهـ .

وقال ابن كثير : انتهت إليه رياسة المذهب ـ الشافعي ـ وقصد بالفتوى من سائر الآفاق، وكان في آخر عمره لا يتقيد بالمذهب بل أتسع نطاقه وأفتى بما أدى إليه اجتهاده، وقال جمال الدين ابن الحاجب إمام المالكية : ابن عبد السلام أفقه من الغزالى، لبس خرقة التصوف من الشهاب السهروردى، وكان يحضر عند الشيخ أبى الحسن الشاذلى ويسمع كلامه فى الحقيقة ويعظمه، وقال الشاذلى : قيل لى : ما على وجه الأرض مجلس فى الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وما على وجه الأرض مجلس فى الحديث أبهى من مجلس الشيخ زكى الدين بن عبد العظيم، وما على وجه الأرض مجلس فى علم الحقائق أبهى من مجلسك، قلت : هذا من الإلهام المؤيد بالواقع الملموس فإنه لم يكن فى ذلك العصر من يماثل هؤلاء فيما أختصهم الله به، وللشيخ عز الدين كرامات كثيرة، وألف كتباً لم يسبق إلى كثير منها ناهيك بقواعده الكبرى فإنها تدل على تبحره فى الشريعة وغوصه على دقائقها وهى أكبر دليل على بلوغه رتبة الاجتهاد المطلق .

ولد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسمائة وتوفى بمصر عاشر جمادى الأول سنة ستين وستمائة .

قال القطب البونى : كان مع شدته وصلابته حسن المحاضرة بالنوادر والأشعار يحضر السماع ويقص فيه .

وقال ابن كثير : كان لطيفاً ظريفاً يستشهد بالأشعار اهـ، ﷺ وأرضاه، وأنزله منزلة الصديقين الأبرار، ونفعنا ببركة خدمة رسالته هذه وغيرها من رسائله التى اعتزمنا نشرها، والله الموفق لا رب غيره، وهو الهادى إلى سواء السبيل .

أبو الفضل

عبد الله محمد الصديق

الغمارى الحسنى عفى الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر وأعن يا كريم

قال الشيخ الإمام شيخ الإسلام مفتى الأنام صدر العراق والشام عز الدين محمد عبد العزيز بن عبد السلام السلمى الشافعى رضي الله عنه : قال الله تعالى لنبينا ﷺ متمننا عليه، معرفاً لقدره لديه ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾(النساء ١١٣) وقد فضل الله بعض الرسل على بعض، ﴿ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ (١) وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾(البقرة ٢٥٣) .

الفضل الأول(٢) صريح فى أهل المفاضلة .

---

(١) أى من غير واسطة ملك، وهم ثلاثة أنبياء على ما ورد أولهم آدم عليه السلام، أخرج أحمد والنسائى عن أبى ذر رضي الله عنه قال: أتيت النبى ﷺ وهو فى المسجد فجلست فقال: { يا أبا ذر هل صليت ؟ قلت: لا، قال: قم فصل، فقمت فصليت ثم جلست، فقال: يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الأنس والجن، قلت: يا رسول الله أو للأنس شياطين ؟، قال: نعم، قلت: يا رسول الله الصلاة ؟ قال: خير موضوع من شاء أقل ومن شاء أكثر، قلت: يا رسول الله فالصوم ؟ قال: فرض مجزى وعند الله مزيد، قلت: يا رسول الله فالصدقة ؟ قال: أضعاف مضاعفة، قلت: يا رسول الله فأيهما أفضل؟ قال: جهد من مقل أو سير إلى فقير، قلت: يا رسول الله أى الأنبياء كان أول ؟ قال: آدم، قلت: يا رسول الله ونبياً كان ؟ قال: نعم نبى مكلم، قلت: يا رسول الله كم المرسلون؟ قال: ثلاثمائة وبضعة عشر جما غفيراً، وقال مرة: (خمسة عشر)، قال: يا رسول الله أيما أنزل عليك أعظم ؟ قال: آية الكرسى: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾(البقرة:٢٥٥)} . صححه بن حبان والحاكم وسلمه الذهبى، وهذا مما رواه المسعودى قبل اختلاطه، وفى تفسير ابن مردوية بإسناد ضعيف عن أبى ذر قال: قلت يا رسول الله : ارأيت آدم، أنبياً كان ؟ قال: نعم كلمه الله قبلاً - يعنى عياناً - فقال ﴿ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ (البقرة:٣٥)، وفى صحيح بن حبان ومستدرك الحاكم عن أبى إمامة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله أنبياً كان آدم ؟ قال: {نعم نبى معلم مكلم، قال: كم بينه وبين نوح ؟ قال: عشرة قرون، قال: يا رسول الله كم كانت الرسل ؟ قال: ثلاثمائة وخمسة عشر جمعاً غفيراً} . صححه الحاكم على شرط مسلم وسلمه الذهبى، والظاهر أن الرجل هو أبو ذر، وللحديث طرق ذكرها الحافظ السيوطى فى أماليه التفسيرية بشىء من التوسع، وثانيهم موسى عليه السلام، قال الله تعالى ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً ﴾(النساء:١٦٤) وثالثهما سيدنا محمد ﷺ وقد كلمه الله تعالى فى ليلة الإسراء والمعراج، كما هو معلوم .

(٢) يعنى قوله تعالى ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾(البقرة:٢٥٣) فهذا صريح فى أصل المفاضلة بين الرسل عليهم الصلاة والسلام، وقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ﴾(الإسراء:٥٥) وهذا أيضاً صريح، أما حديث {لا تفضلوا بين أنبياء الله} وفى رواية {لا تخيروا بين أنبياء الله} - وهو بكلتا روايتيه فى الصحيح - فالمراد به النهى عن التفضيل بمجرد الرأى الذى لا يستند إلى دليل، أو المراد به النهى عن التفضيل الذى يؤدى إلى نقص المفضول، أو يؤدى إلى الخصومة والتنازع، أو النهى عن التفضيل فى النبوة نفسها وهى لا مفاضلة فيها لقوله تعالى ﴿ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾(البقرة:٢٨٥) وقال الحليمى: الأخبار الواردة فى النهى عن التخيير إنما هى فى مجادلة أهل الكتاب وتفضيل بعض الأنبياء ==

والثانى[1] فى تضعيف المفاضلة بدرجات ونكرها تنكير التعظيم بمعنى درجات أى درجات، وقد فضل الله ﷻ نبينا محمد ﷺ من وجوه :

١ ـ منها : أنه ساد الكل فقال ﷺ {أنا سيد ولد آدم ولا فخر}[2]. والسيد من أتصف بالصفات العالية والأخلاق السنية وهذا مشعر بأنه أفضل منهم فى الدارين، أما فى الدنيا فلما اتصف به من الأخلاق المذكورة، وأما فى الآخرة فلأن جزاء الآخرة مرتب على الأوصاف والأخلاق، فإذا فضلهم فى الدنيا فى المناقب والصفات فضلهم فى الآخرة فى المراتب والدرجات، وإنما قال ﷺ {أنا سيد ولد بن آدم ولا فخر} . لتعرف أمته منزلته من ربه ﷻ .

ولما كان من ذكر مناقب نفسه إنما يذكرها افتخار فى الغالب أراد ﷺ أن يقطع وهم من يتوهم من الجهلة أنه ذكر ذلك افتخار فقال {ولا فخر} .

٢ ـ ومنها : قوله {وبيدى لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر}[3] .

== على بعض بالمخايرة، لأن المخايرة إذا وقعت بين أهل دينيين لا يؤمن أن يخرج أحدهما إلى الازراء بالآخر فيفضى إلى الكفر، فأما إذا كان التخيير مستنداً إلى مقابلة الفضائل لتحصيل الرجحان فلا يدخل فى النهى، اهـ، وهو حسن جميل ويؤيده سبب ورود الحديث كما يشهد له الواقع الملموس فقد وقعت منازعات بين المسلمين والمبشرين أدت إلى إزراء كبير ببعض الأنبياء بسبب التفضيل الذى هو فى هذه الحالة محرم قطعاً.

(١) وهو قوله تعالى ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾(البقرة:٢٥٣) والمراد ببعضهم النبى ﷺ فإن الله فضله من وجوه متعددة وبمراتب متباعدة، وفى الإبهام تفخيم لشأنه كأنه العلم المتعين لهذا الوصف المستغنى عن التعيين .

(٢) رواه أبو بكر بن أبى عاصم فى كتاب الأدب له عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ، وروى ابن مردويه فى تفسيره عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال: {لما أسرى بى إلى السموات} فذكر حديث الإسراء بطوله وقال فى آخره {فأنا بنعمة الله سيد ولد بن آدم ولا فخر وأنا عبد مقبوض وما عند الله خير وأبقى} . وفى المستدرك للحاكم من حديث عائشة أن النبى ﷺ قال{أنا سيد ولد آدم وعلى سيد العرب} وهو حديث ضعيف خلافاً لقول الذهبى أنه موضوع، وأخرج الحارث بن أبى أسامة عن عائشة أيضاً قالت : قلت يا رسول الله أنت سيد العرب؟ قال {أنا سيد ولد بن آدم ولا فخر وآدم تحت لوائى ولا فخر. وللحديث طرق .

(٣) روى أحمد وابن ماجه والترمذى واللفظ له عن أبى سعيد الخدرى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ {أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وبيدى لواء الحمد ولا فخر، ما من نبى يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائى، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر} . حسنه الترمذى، وروى الدارمى والترمذى وأبو يعلى وأبو نعيم والبيهقى عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ {أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا وأنا قائدهم إذا وفدوا وأنا خطيبهم إذا أنصتوا وأنا شافعهم إذا حبسوا وأنا مبشرهم إذا أبلسوا لواء الكرم بيدى ومفاتيح الجنة بيدى ولواء الحمد بيدى وأنا أكرم ولد آدم على ربى ولا فخر يطوف على ألف خادم كأنهم اللؤلؤ المكنون} .

٣ ـــ ومـنـها : قولـه {آدم فمـن دونـه تحت لوائى يوم القيامة ولا فخر} .
وهـذه الخصـائص تـدل على علو مرتبته على آدم وغيره، إذ لا معنى للتفضيل إلا التخصيص بالمناقب والمراتب .

٤ ــ ومنها : أن الله أخبره أنه غفر لَه من ما تقدم من ذنبه وما تأخر[١] ولم ينقل أنـه أخـبر أحد من الأنبياء بمثل ذلك بل الظاهر أنه لم يخبرهم لأن كل واحد منهم إذا طلبت منه الشفاعة فى الموقف ذكر خطيئته التى أصاب وقال ((نفسى نفسى)) .

ولـو عـلم كـل واحد منهم بغفران خطيئته لم يؤجل منها فى ذلك المقام وإذا استشفعت بالنبى ﷺ فى ذلك المقام قال {أنا لها}[٢] .

٥ ــ ومنها: أنه أول شافع وأول مشفع ، وهذا يدل على تخصيصه وتفضيله[٣].

٦ ـــ ومـنـها: إيـثاره عـلى نفسـه بدعوته ، إذ جعل الله ﷻ لكل نبى دعوة مسـتجابة فكـل واحـد مـنهم تعجل دعوته فى الدنيا واختبأ هو ﷺ دعوته شفاعة لأمته[٤] .

---

(١)حيـث قـال ﷺ ﴿ إِنَّـا فَتَحْـنَا لَـكَ فَتْحاً مُبِيناً ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾(الفتح: ٢) الآية نزلـت فـى صلح الحديبية سنة ست من الهجرة، وكانت إيذاناً وبشارة بفتح مكة والطائف وغيرهما، وإسناد الذنـب فـيها إلى النـبى ﷺ مـؤول لقيام الدليل القاطع على عصمة الأنبياء عليهم السلام، واختلف فى التأويل عـلى أقـوال أقـر بهـا أن الغفـر معناه الستر، والستر إما بين العبد والذنب، أو بين الذنب وعذابه، والمراد هنا الأول، فمعـنى يغفر الله لك أى ليجعل بينك وبين الذنوب ساتراً من العصمة فلا يحصل منك ذنب أبداً لا فى الماضى ولا فى الحال ولا فى المستقبل .

(٢) هـذا وارد فـى حديـث الشـفاعة الطويل وفيه أن الناس يذهبون إلى آدم ونوح وإبراهيم وموسى يطلبون الشفاعة فكـل منهم يذكر أن الله غضب اليوم غضباً لم يسبق قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ثم يقول ((نفسى، نفسى)) ويحيـلهم عـلى غيره حتى يأتوا عيسى فيقول لهم ((لست هناكم ولكن أتوا محمدا عبداً غفر الله له ما تقدم مـن ذنـبه وما تأخر)) فإذا أتوا النبى ﷺ قال {أنا لها أنا لها} الحديث وهو مخرج فى الكتب الستة وغيرها بألفاظ وطرق .

(٣) فـى صـحيح مسـلم عـن أبى هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ {أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من تنشق عـنه الأرض وأول شافع وأول مشفع {مشفع بفتح الفاء المشددة، مقبول الشفاعة، وفى حديث الشفاعة الطويل الـذى أشرنا إلـيه آنفـاً أن النـبى ﷺ حـين يذهب للشفاعة يستأذن على الله فيأذن له فإذا رأى الله تعالى خر ساجداً فيدعه ربه ما شاء ثم يقال ﴿ ارفع رأسك محمد، قل تسمع، وسل تعط، واشفع تشفع ﴾ الحديث .

(٤) فـى الصحيح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ {لكل نبى دعوة مستجابة فتعجل كل نبى دعوته وإنى اختـبأت دعوتـى شـفاعة لأمـتى يوم القيامة فهى نائلة إن شاء الله من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئا}==

٧ ـــ ومنها: أن الله تعالى أقسم بحياته في قوله ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾(الحجر:٧٢)(١) والأقسام بحياة المقسم بحياته يدل على شرف حياته وعزها عند المقسم بها، وإن حياته ﷺ لجديرة أن يقسم بها لما كان فيها من البركة العامة والخاصة، ولم يثبت هذا لغيره ..

٨ ـــ ومنها : أن الله تعالى وقره في ندائه فناداه بأحب أسمائه وأسنى أوصافه فقال ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾(لأنفال: ٦٤) ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ﴾(المائدة: ٤١)(٢) وهذه

== وفى مسندى أحمد وأبى يعلى عن ابن عباس قال: قال رسول الله {أنه لم يكن نبى إلا له دعوة قد تنجزها فى الدنيا وأنى قد اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى وأنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر وبيدى لواء الحمد ولا فخر آدم فمن دونه تحت لوائى ولا فخر} الحديث، وهو طويل فى ذكر شفاعة الموقف وفى صحيح مسلم عن أبى بن كعب ﷺ أن النبى ﷺ قال {أرسل إلى ربى أن اقرأ القرآن على حرف فرددت عليه يا رب هون على أمتى فرد على الثانية أن اقرأ على حرفين قلت يا رب هون على أمتى فرد على الثالثة أن اقرأ على سبعة أحرف ولك بكل ردة رددتها مسألة تسألينها فقلت اللهم اغفر لأمتى اللهم اغفر لأمتي وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم عليه السلام} . وفى مسانيد البزار وأحمد وأبى يعلى عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ {كل نبى قد أعطى عطية فتنجزها وإنى اختبأت عطيتى شفاعة لأمتى} إسناده حسن وفى هذا المعنى أحاديث كثيرة عن عبد الله بن عمرو وعبادة بن الصامت ومعاذ وأبى موسى وعوف بن مالك الأشجعى وعبد الرحمن ابن أبى عقيل وغيرهم وهى كلها تفيد رحمة النبى ﷺ بأمته وإيثاره إياهم على نفسه ودعاءه لهم فى كل مناسبة تعرض له بل بلغ من شفقته عليهم أن أخذه البكاء فى بعض الأحيان كما ثبت فى صحيح مسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم ﴿ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(ابراهيم:٣٦) وقول عيسى ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(المائدة:١١٨) فرفع يديه وقال {أمتى، أمتى} ثم بكى، فقال الله تعالى ﴿ يا جبريل أذهب إلى محمد فقل له أنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك ﴾ فصلى الله وسلم وبارك عليه، وجزاه عنا أفضل ما جزى نبياً عن أمته .

(١) أخرج ابن جرير عن ابن عباس : قال ما خلق الله وما برأ وما ذرأ نفسا أكرم عليه من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (الحجر:٧٢) يقول: وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا، وقال أبن القيم في التبيان: أكثر المفسرين من السلف والخلف بل لا يعرف السلف فيه نزاعا أن هذا القسم من الله تعالى بحياة رسول الله ﷺ وهذا من أعظم فضائله أن يقسم الرب ﷻ بحياته وهذه مزية لا تعرف لغيره ولم يوفق الزمخشري لذلك فصرف القسم إلى أنه بحياة لوط وأنه من قول الملائكة، فقال: هو على إرادة القول أي قالت الملائكة للوط عليه الصلاة والسلام (لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون) وليس في اللفظ ما يدل على واحد من الأمرين بل ظاهر اللفظ وسياقه إنما يدل على ما فهمه السلف أهـ، ومعنى الآية بإجمال (لَعَمْرُكَ) أي وحياتك (إِنَّهُمْ) أي قوم لوط أو قريشا (لَفِي سَكْرَتِهِمْ) أي ضلالتهم، أو عشقهم قال الشاعر :

سكران سكر هوى وسكر مدامة ومتى أفاقة من به سكران ؟

(يَعْمَهُونَ) يتحيرون أو يترددون .

(٢) قال الحافظ أبو نعيم فى كتاب دلائل النبوة: ومن فضائله إخبار الله ﷻ عن إجلال قدر نبيه ﷺ وتبجيله==

الخصيصة لم تثبت لغيره، بل ثبت أن كلا منهم نودى باسمه فقال الله تعالى ﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ ﴾(البقرة: ٣٥) ﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي ﴾ (المائدة: ١١٠) ﴿ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ ﴾(القصص: ٣٠) ﴿ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ ﴾(هود: ٤٨)

== وتعظيمه وذلك أنه ما خاطبه فى كتابه ولا أخبر عنه إلا بالكناية التى هى النبوة والرسالة التى لا أجل منها فخراً ولا أعظم خطراً وخاطب غيره من الأنبياء وقومهم وأخبر عنهم بأسمائهم ولم يذكرهم بالكناية التى هى غاية المرتبة إلا أن يكون الرسول ﷺ فى جملتهم بمشاركته معهم فى الخطاب والخبر فأما فى حال الانفراد فما ذكرهم إلا بأسمائهم، وذكر جملة من الآيات فى نداء الأنبياء والخبر عنهم، ثم قال: فكل موضع ذكر فيه محمد باسمه أضاف إليه ذكر الرسالة فقال ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾(آل عمران: ١٤٤)، ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾(الفتح: ٢٩) ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾(الأحزاب: ٤٠) ﴿ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾(محمد: ٢) فسماه ليعلم من جحده أن أمره وكتابه هو الحق لأنهم لم يعرفوه إلا بمحمد، إلى أن قال: ثم جمع فى الذكر بين أسم خليله ونبيه فسمى خليله باسمه وكنى حبيبه بالنبوة فقال ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ ﴾(آل عمران: ٦٨) فكأناه إجلالاً له ورفعة لفضل مرتبته ونباهته عنده ثم قدمه فى الذكر على من تقدمه فى البعث، فقال ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ ﴾(الأحزاب: ٧) الآية، ثم أسند عن الحسن عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ﴾ {كنت أول النبيين فى الخلق وأخرهم فى البعث} اهـ مختصر، وفى إسناد الحديث المذكور ضعف لكن ورد من طريق أخر عن قتادة مرسلاً بإسناد صحيح، وروى البزار عن أبى هريرة فى الآية قال: خيار ولد آدم خمسة: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وخيرهم محمد ﷺ، ومما يتصل بهذه الخصوصية ويناسبها أن الله تعالى نهانا أن نناديه باسمه مجرداً عن التعظيم، قال أبو نعيم: ومن فضائله ﷺ أن الناس نهاهم الله ﷻ أن يخاطبوا رسوله باسمه وأخبر سائر الأمم أنهم كانوا يخاطبون رسلهم بأسمائهم كقولهم ﴿ يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾(الأعراف: ١٣٨) ﴿ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾(المائدة: ١١٢) ﴿ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾(هود: ٥٣) ﴿ يَا صَالِحُ ائْتِنَا ﴾ (الأعراف: ٧٧) وقال ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾(النور: ٦٣) فندبهم الله تعالى إلى تكنيته بالنبوة والرسالة ترفيعاً لمنزلته خصه الله بهذه الفضيلة من بين أنبيائه ورسله اهـ. مختصر، وروى ابن أبى حاتم وابن مردوية وأبو نعيم عن أبن عباس فى الآية قال: كانوا يقولون يا محمد يا أبا القاسم، فنهاهم الله عن ذلك إعظاما لنبيه ﷺ فقالوا: يا نبى الله يا رسول الله، وروى ابن جرير عن مجاهد ﴿ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ قال أمرهم أن يدعوا يا رسول الله فى لين وتواضع، ولا يقولوا يا محمد فى تجهم، ورواه ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم بطرق، وروى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال: أمر الله أن يهاب نبيه وأن يبجل وأن يعظم وأن يفخم وأن يشرف، وروى عبد بن حميد عن عكرمة فى الآية قال: لا تقولوا يا محمد ولكن قولوا يا رسول الله، وقال سعيد بن جبير والحسن البصرى مثل ذلك رواه عنهما عبد بن حميد أيضاً، وقال مقاتل فى الآية: يقول لا تسمعوه إذا دعوتموه يا محمد ولا تقولوا يا ابن عبد الله ولكن شرفوه فقولوا يا نبى الله، يا رسول الله، وقال زيد بن اسلم فى الآية أيضاً أمرهم الله أن يشرفوه، وقال ابن كثير: هذا قول وهو ظاهر من السياق كقوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا ﴾ (البقرة: ١٠٤) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾(الحجرات: ٢)، فهذا من باب الأدب فى مخاطبة النبى ﷺ والكلام معه وعنده كما أمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته، اهـ، وهذا القول هو الراجح من وجوه بينها شقيقنا الحافظ أبو الفيض فى كتاب (تشنيف الأذان) فليراجع.

﴿ يَـا دَاوُدُ إِنَّـا جَعَلْـنَاكَ خَلِـيفَةً ﴾(ص: ٢٦) ﴿ يَـا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا ﴾ (الصافات: ١٠٤ـ ١٠٥) ﴿ يَـا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾(هود: ٨١) ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ (مريم: ٧) ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ ﴾(مريم: ١٢) .

ولا يخفى على أحد أن السيد إذا دعاء أحد عبيده بأفضل ما وجد فيهم من الأوصاف العلية، والأخلاق السنية، ودعا الآخرين بأسمائهم الأعلام التى لا تشعر بوصف من الأوصاف، ولا بخلق من الأخلاق، أن منزلة من دعاه بأفضل الأسماء والأوصاف أعز عليه وأقرب إليه ممن دعاه باسمه العلم، وهذا معلوم بالعرف أن من دعى بأفضل أوصافه وأخلاقه، كان ذلك مبالغة فى تعظيمه واحترامه حتى قال القائل :

لا تدعنى إلا بيا عبدها، فأنه أحسن أسمائى .

٩ ــ ومنها : أن معجزة كل نبى تصرمت وانقضت ومعجزة النبى ﷺ بقيت وهى للأولين والآخرين ـ وهى القرآن المبين ــ باقية إلى يوم الدين(١) .

١٠ ــ ومنها : تسليم الحجر عليه وحنين الجزع إليه(٢) ولم يثبت لواحد من الأنبياء مثل ذلك . * خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به *

---

(١) فى الصحيحين عن أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ {ما من الأنبياء نبى إلا أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة} قال العلماء: ليس المراد من الحديث حصر معجزاته فى القرآن، وأنه لم يؤت غيره، وإنما المراد أن القرآن معجزته العظمى، وأنه باق مستمر لا ينقرض ولا يدخله نقص ولا تبديل ولهذا رجا أن يكون أكثر الأنبياء تابعاً يوم القيامة وقد حقق الله رجاءه فجعل أمته أكثر الأمم ﷺ .

(٢) أما تسليم الحجر ففى صحيح مسلم عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ {إنى لأعرف حجراً بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث إنى لأعرفه الآن} وفى الباب أحاديث أخرى، وأما حنين الجذع فرواه الشيخان عن سهل بن سعد، والبخارى وأحمد عن جابر وابن عمر، والدارمى وأحمد وابن ماجه عن ابن عباس، والدارمى عن أبى سعيد وبريدة، وأحمد والترمذى وابن ماجه عن أنس، والبيهقى فى الدلائل عن أم سلمة، والشافعى وأحمد والدارمى وابن ماجه وأبو يعلى وسعيد بن منصور عن أبى بن كعب والطبرانى فى الأوسط وأبو نعيم فى الدلائل عن عائشة، والزبير بن بكار فى أخبار المدينة عن المطلب بن أبى وداعة، قال عمر بن سواد: قال لى الإمام الشافعى: ما أعطي الله تعالى نبياً ما أعطى محمداً ﷺ، قلت: أعطى عيسى أحياء الموتى، فقال: أعطى محمد حنين الجذع، فهذا أكبر من ذاك، رواه البيهقى وغيره .

١١ ـــ ومنها: أنه وجد في معجزاته ما هو أظهر في الأعجاز من معجزات غيره، كتفجر الماء بين أصابعه[١] فإنه أبلغ في العادة من تفجره من الحجر لأن جنس الأحجار مما يتفجر منه الماء، فكانت معجزاته بانفجار الماء من بين أصابعه أبلغ من انفجار الحجر لموسى .

١٢ ـــ ومنها : أن عيسى عليه السلام أبرأ ألاكمه مع بقاء عينيه في مقرها ورسول الله ﷺ رد العين أن سالت على الخد[٢] وفيه معجزة من وجهين :

---

(١) تعددت قصة تفجير الماء من بين أصابعه ﷺ في الحضر والسفر، ففي رواية منها أن الذين شربوا وتوضئوا من ذلك الماء كانوا ألفاً وأربعمائة، وهذه رواية جابر بن عبد الله في صحيح البخاري، وفي رواية أخرى أنهم كانوا زهاء ثلاثمائة وهذه رواية قتادة عن أنس في الصحيحين، وفي أخرى أنهم كانوا ما بين السبعين والثمانين، وهذه رواية ثابت عن أنس في الصحيحين أيضاً ورواها البخاري من طريق الحسن عن أنس، ومن طريق حميد عنه وفيها أنهم كانوا ثمانين وزيادة، ورواها كثير من الصحابة الذين شاهدوها مثل عبد الله بن مسعود والبراء بن عازب وأبي قتادة وابن عباس وأبي ليلى الأنصاري وأبي رافع وأبي عمرة الأنصاري وعمران بن أبي حصين وزياد بن الحارث الصدائي وحبان ـ بكسر الحاء على المشهور ـ بن بح ـ، بضم الموحدة وتشديد المهملة، وغيرهم، قال أبو نعيم الحافظ هذه الآية من أعجب الآيات أعجوبة وأجلها معجزة وأبلغها دلالة، شاكلت دلالة موسى في تفجير الماء من الحجر حين ضربه بعصاه، بل هذا أبلغ في الأعجوبة لأن نبع الماء من بين اللحم والعظم أعجب وأعظم من خروجه من الحجر لأن الحجر سنخ من أسناخ الماء مشهور في المعلوم مذكور في المتعارف، وما روى قط ولا سمع في ماضي الدهور بماء نبع وانفجر من آحاد بني آدم حتى صدر عنه الجم الغفير من الناس والحيوان رواء، وانفجار الماء من الأحجار ليس بمنكر ولا بديع وتفجره من بين الأصابع معجز بديع، اهـ .

(٢) أخرج أبو يعلى وأبو نعيم من طريق عاصم بن عمر بن قتادة عن أبيه عن جده قتادة أنه أصيبت عينه يوم أحد فسالت حدقته على وجنته فأرادوا أن يقطعوها فسألوا النبي ﷺ فقال {لا} فدعا به فغمز عينه براحته فكان لا يدري أي عينيه أصيبت. وروى البيهقي عن أبي سعيد الخدري عن قتادة بن النعمان ـ وكان أخاه لامه ـ أن عينيه ذهبت يوم أحد فجاء بها إلى النبي ﷺ فردها فاستقامت، قال البيهقي: وذكر الواقدي مثله، وزاد: فكانت أقوى عينيه وأصحهما بعد أن كبر. وروى عبد الله بن إدريس عن محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر عن قتادة عن جابر بن عبد الله قال: أصيبت عين قتادة بن النعمان يوم أحد وكان قريب عهد بعرس فأتى النبي ﷺ فأخذها بيده فردها فكانت أحسن عينيه وإحداهما نظراً، ولهذه القصة طرق وورد أنها أصيبت يوم بدر، وقيل يوم الخندق، قال الحافظ بن عبد البر: الأصح والله أعلم أن عين قتادة أصيبت يوم أحد اهـ. وذكر الأصمعي أن رجلاً من ولد قتادة بن النعمان وفد على عمر بن عبد العزيز فسأله عمر ممن الرجل ؟ فقال:

أنا ابن الذى سالت على الخد عينه فردت بكف المصطفى أحسن الرد
فعادت كما كانت لأول أمرها فيا حسن ما عين ويا حسن ما رد

فقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : هذي المكارم لا قعبان من لبن شيبا بماء فعاد بعد أبوالا

"تنبيه" وقع لأبي ذر مثل قصة قتادة فروى أبو يعلى من طريق عبد الرحمن بن الحارث بن عبيده عن جده قال: أصيبت عين أبي ذر يوم أحد فبزق فيها النبي ﷺ فكانت أصح عينيه، ويقرب من هذا ما رواه ابن أبي شيبة والبغوي وابن السكن والطبراني وأبو نعيم من طريق عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز حدثني رجل من ==

إحداهما : التئامها بعد سيلانها .

والآخـر : رد البصر إليها بعد فقده منها .

١٣ ــ ومـنـها : أن الأموات الذين أحياهم[(١)] من الكفر بالإيمان، أكثر عددا ممن أحياهم بحياة الأبدان، وشتان بين حياة الإيمان وحياة الأبدان .

١٤ ــ ومـنـها : أن الله ﷻ كتـب لكـل نـبي مـن الأجـر بقـدر أعمال أمته وأحوالهـا وأقوالهـا، وأمـته شـطر أهل الجنة، وقد أخبر الله تعالى (أنهم خير أمة أخرجـت للـناس)، وإنمـا كـانوا خـير الأمـم لمـا اتصفوا به من المعارف والأحوال والأقـوال والأعمـال . فمـا مـن معـرفة ولا حالـة ولا عبادة ولا مقالة ولا شيء مما يتقرب به إلى الله تعالى مما دل عليه رسول الله ﷺ ودعا إليه . إلا وله أجره وأجر مـن عمـل بـه إلى يـوم القيامة لقوله ﷺ {مـن دعـا إلى هـدى كان لـه أجـره وأجر من عمل بـه إلى يـوم القيامة}[(٢)] ولا يبلغ أحد من الأنبياء إلى هذه المرتبة .

وقـد جـاء الحديـث: {أن الخلـق عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعياله}[(٣)]

== بني سلمان بن سعد عن أمه أن خالها حبيب بن فديك ــ بالواو أو الدال أو الراء مصغراً ــ حدثها أن أباه خرج بـه إلى الـنبي ﷺ وعيـناه مبيضتان لا يبصر بهما شيئا فسأله ما أصابه ؟ قال: إني كنت أمرن جملا لي فوضعت رجلـي عـلى بـيض حـية فأصبت ببصري فنفث رسول الله ﷺ في عينيه فأبصر، قال فرأيته يدخل الخيط في الإبرة وإنه لابن ثمانين سنة، وإن عينيه لمبيضان

(١) أي الـنبي ﷺ فإنـه أحـيا بالإيمـان أممـا لا تحصى، وما أحياه عيسى عليه السلام من موتى الأبدان لا يتجاوز عدد أصابع يـد واحـدة، عـلى أنـه صـح إحـياء الموتـى لإفراد من أمة النبي ﷺ. وذلك مضاف إلى == == جملة معجـزاته، وقـد ذكـرنا شـيئا من ذلك في كتابنا (الحجج والبينات في إثبات الكرامات) فليراجع، ولابن أبي الدنيا جزء (من عاش بعد الموت) وهو مطبوع .

(٢) أحمـد ومسـلم والأربعة من حديث أبي هريرة بلفظ {من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعة لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً}.

(٣) أبو يعلى والبزار والطبراني والحارث بن أبي أسامة وأبو نعيم والبيهقي وغيرهم عن أنس مرفوعا بلفظ {الخلق كـلهم عـيال الله فأحـبهم إلى الله أنفعهم لعياله} وإسناده ضعيف، ورواه الطبراني في الكبير والأوسط وأبو نعيم في الحلـية والبـيهقي في الشـعب عـن ابن مسعود بلفظ {الخلق كلهم عيال الله فأحب الخلق إلى الله من أحسن إلى عـياله} وإسـناده جـيد، ورواه الديـلمي في مسـند الفـردوس عـن أبـي هريرة بلفظ {الخلق كلهـم عيال الله وتحت كنفه فأحب الخلق إلى الله من أحسن إلى عياله} وفي الباب غيره، وقال أبو العتاهية مقتبساً :

عـيال الله أكـرمهم عـليـه   أبـثهـم المـكارم فـي عـياله
ولم تـر مثنيا من ذي فـعال   عليه قط أفـصح مـن فـعاله ==

فإذا كان ﷺ قد نفع شطر أهل الجنة، وغيره من الأنبياء إنما نفع جزءا من أجزاء الشطر الآخر كانت منزلته ﷺ في القرب على قدر منزلته في النفع، فما من عارف من أمته إلا وله مثل أجر معرفته، مضافا إلى معارفه ﷺ وما من ذي حال من أمته إلا وله ﷺ مثل أجره على حاله، مضموما إلى أحواله ﷺ وما من ذي مقال يتقرب به إلى الله ﷻ إلا وله ﷺ مثل أجر ذلك القول مضموما إلى مقالته وتبليغ رسالته .

وما من عمل من الأعمال المقربة إلى الله ﷻ من صلاة وزكاة وعتق وجهاد وبر ومعروف وذكر وصبر وعفو وصفح إلا له ﷺ مثل أجر عامليه مضموما إلى أجره على أعماله، وما من درجة علية ومرتبة سنية نالها أحد من أمته بإرشاده ودلالته إلا وله مثل أجرها مضموما إلى درجته ﷺ ومرتبته، ويتضاعف ذلك بأن من دعا من أمته إلى هدى أو سن سنة حسنة كان له أجر من عمل بذلك على عدد العاملين، ثم يكون هذا المضاعف لنبينا ﷺ . لأنه دل عليه وأرشد إليه .

لأجل هذا بكى موسى عليه السلام ليلة الإسراء[١] بكاء غبطة غبط بها نبينا ﷺ إذ يدخل من أمته الجنة أكثر مما يدخل من أمة موسى . ولم يبك حسداً[٢] كما يتوهمه بعض الجهلة وإنما بكى أسفا على ما فاته من مثل مرتبته .

١٥ ــ ومنها : أن الله أرسل كل نبي إلى قومه خاصة، وأرسل نبينا ﷺ إلى الجن والأنس[٣] فلكل نبى من الأنبياء ثواب تبليغه إلى أمته، ولنبينا ﷺ ثواب

== قال العسكري في معنى الحديث: مخرج هذا الكلام على المجاز والتوسع كأن الله تعالى لما كان المتضمن بأرزاق العباد والكافل بهم كانوا كالعيال له أهـ، قلت: لا داعي إلى ارتكاب المجاز فإن معنى العيال الفقراء قال تعالى ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً ﴾(التوبة:٢٨) أي: فقراً، وقال ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ (الضحى:٨) أي: فقيرا، ولا شك أن الخلق كلهم فقراء الله ومحتاجون إليه .

(١) ثبت هذا في حديث الإسراء المخرج في الصحيحين وغيرهما من طرق .

(٢) بل لو كان موسى عليه السلام ممن يجوز عليهم الحسد في الحياة لما جاز عليه وهو في عالم لا حسد فيه ولا أحقاد، ومما يؤيد إبعاد فكرة الحسد نهائيا أن موسى عليه السلام كان في تلك الليلة مشفقا على أمة النبي ﷺ داعيا له إلى طلب التخفيف عنهم عدة مرات، حتى قال له النبي ﷺ {لقد راجعت ربي حتى استحيت منه} وليس من طبيعة الحاسد النصح والإشفاق .

(٣) وهذا ثابت بالنص والإجماع القاطعين، وهل أرسل ﷺ إلى الملائكة ؟ اختلف في ذلك على قولين: ==

التبليغ إلى كل من أرسل إليه تارة بمباشرة الإبلاغ، وتارة بالتسبب إليه، ولذلك تمنن عليه بقوله ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً ﴾(الفرقان:٥١) ووجه التمنن أنه لو بعث فى كل قرية نذير؛ لما حصل لرسول الله ﷺ إلا أجر إنذاره لأهل قريته.

١٦ ـــ ومنها : أن الله ﷻ كلم موسى عليه السلام بالطور وبالواد المقدس، وكلم نبينا ﷺ عند سدرة المنتهى[١] .

١٧ ـــ ومنها : أنه قال نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة المقتضى لهم قبل الخلائق[٢] ونحن أول من يدخل الجنة ..

١٨ ـــ ومنها : أنه كما ذكر السؤدد مطلقاً فقد قيده بيوم القيامة[٣] فقال

= أحدهما: أنه لم يرسل إليهم جزم به البيهقى والحليمى من الشافعية، ومحمود بن حمزة الكرمانى من الحنفية فى كتابه العجائب والغرائب، ونقل البرهان النسفى والفخر الرازى الإجماع عليه فى تفسيرهما وجزم به من المتأخرين الحافظ العراقى فى نكته على ابن الصلاح والجلال المحلى فى شرح جمع الجوامع .
والقول الثانى : أنه أرسل إليهم وهذا القول رجحه تقى الدين السبكى والحافظ السيوطى، وزاد التقى السبكى أنه مرسل إلى جميع الأنبياء، والأمم السابقة، وان قوله عليه السلام {بعثت إلى الناس كافة} شامل لهم من لدن آدم إلى قيام الساعة، ورجحه البارزى وزاد أنه مرسل إلى جميع الحيوانات والجمادات، واستدل على ذلك بشهادة الضب له الرسالة وشهادة الشجر والحجر له، قال الحافظ السيوطى وأزيد على ذلك أنه مرسل إلى نفسه اهـ .
قلت: حديث شهادة الضب ضعيف لكن ثبتت شهادة الذئب والجمل والشجر والحجر، وأقوى ما يستدل به على إرساله للملائكة قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ (الأنبياء:٢٩) قال الحافظ السيوطى: فهذه الآية إنذار للملائكة على لسان النبى ﷺ فى القرآن الذى أنزل عليه وقد قال الله تعالى ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾(الأنعام:١٩) قال: فثبت بذلك إرساله إليهم اهـ، وراجع كتابه "تزيين الأرائك فى إرسال النبى ﷺ إلى الملائكة" وهو مطبوع ضمن كتاب (الحاوى للفتاوى حقوقه طبع مكتبة القاهرة) .

(١) جاء فى بعض طرق حديث الإسراء من حديث أنس قوله ﷺ {ثم صعد بى إلى سبع سموات وأتيت سدرة المنتهى فغشيتنى ضبابه خررت ساجداً فقيل لى إنى يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة} الحديث رواه النسائى، وفى رواية أخرى من حديث أنس أيضاً {ثم أنطلق بى حتى انتهى إلى شجرة ـ يعنى السدرة ـ فغشيتنى سحابة فيها من كل لون فرفضنى جبريل ـ إى تركنى ـ وخررت ساجداً لله فقال الله لى: يا محمد إنى يوم خلقت السموات والأرض فرضت عليك وعلى أمتك خمسين صلاة فقم بها أنت وأمتك، ثم انجلت عنى السحابة وأخذ بيدى جبريل} رواه ابن أبى حاتم وغيره .

(٢) فى صحيح مسلم عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ {نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة المقتضى لهم قبل الخلائق}، وفى أوسط معاجم الطبرانى بسند حسن عن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال {الجنة حرمت على الأنبياء حتى أدخلها وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتى} . وفيه من حديث ابن عباس نحوه .

(٣) ورد حديث السيادة مقيداً بيوم القيامة عن أبى هريرة فى الصحيحين، وعن أبى سعيد الخدرى فى مسند أحمد وسنن الترمذى وابن ماجه، وعن عبد الله بن عمر بن العاص فى صحيح ابن حيان وعن واثلة فى صحيح =

{أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع} .

١٩ ــ ومنها : أنه ﷺ أخبر أنه يرغب إليه الخلق كلهم يوم القيامة حتى إبراهيم[١] .

٢٠ ــ ومنها : أنه قال {الوسيلة منزلة فى الجنة لا ينبغى أن تكون إلا لعبد من عبيد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة}[٢] .

٢١ ــ ومنها : أنه يدخل من أمته الجنة سبعون ألفاً بغير حساب[٣] ولم يثبت ذلك لغيره .

= ابن حبان أيضاً، وعن أنس فى مسند أحمد وغيره من طرق، وعن عبد الله بن سلام عند أبى يعلى والطبرانى، وعن عبادة عند الحاكم وعن غيرهم، قال العلماء: السيد لغة المفزوع إليه فى الشدائد ليدفعها أى شدة كانت والتقييد بيوم القيامة مع أنه سيد فى الدنيا والآخرة لأنه اليوم الذى يلجأ إليه فيه آدم وولده ويظهر فيه سؤدده بلا منازع بخلاف الدنيا فقد نازعه فيه ملوك الكفار وزعماء المشركين وهو من معنى قوله تعالى ﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ﴾(غافر:١٦) لأنه اليوم الذى تنقطع فيه دعوى الربوبية لغير الله تعالى اهـ، وتقدم حديث {أنا أول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع} .

(١) تقدم تخريج هذا الحديث من صحيح مسلم .

(٢) فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبى ﷺ يقول: {إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرة ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة} . قال القرطبى: هذا الرجاء قبل علمه ﷺ بأنه صاحب المقام المحمود، ومع ذلك فإن الله يزيده بدعاء أمته له رفعة كما يزيدهم بصلاتهم عليه اهـ، ومعنى حلت عليه الشفاعة أى وجبت له، وهذا لمن فعل ذلك بصدق نية .

(٣) فى الصحيحين عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ {عرضت على الأمم فرأيت النبى ومعه الرهيط، والنبى ومعه الرجل والرجلان، والنبى وليس معه أحد، إذ رفع لى سواد عظيم فظننت أنهم أمتى، فقيل لى: هذا موسى وقومه، ولكن أنظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لى: أنظر إلى الأفق الآخر، فنظرت سواد عظيم، فقيل لى: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب} . ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس فى أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب فقال بعضهم فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا فى الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء فخرج رسول الله فقال {ما الذى تخوضون فيه ؟ فأخبروه. فقال: هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون} فقام عكاشة بن محصن فقال: أدع الله أن يجعلنى منهم فقال {أنت منهم} ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلنى منهم فقال {سبقك بها عكاشة} ولحديث السبعين ألفا طرق فى الصحيحين عن أبى هريرة وغيره، وفى حديث سهل بن سعد {ليدخلن الجنة من أمتى سبعون ألفا أو سبعمائة ألف ــ لا يدرى أبو حازم أيهما قال ــ متماسكون آخذ بعضهم بعضاً لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم وجوههم على صورة القمر ليلة البدر} رواه الشيخان، وفى سنن الترمذى بإسناد حسن عن أبى إمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول {وعدنى ربى أن يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا لا حساب عليهم ولا عذاب مع كل ألف سبعين ألفاً وثلاث حثيات من ربى} .

٢٢ ـــ ومنها : الكوثـ الذى أعطيه فى الجنة والحوض الذى أعطيه فى الموقف[1] .

٢٣ ـــ ومنها : قوله ﷺ {نحن الآخرون السابقون}[2] الآخرون: زماناً، السابقون: بالمناقب والفضائل .

٢٤ ـــ ومنها : أنه أحلت لَه الغنائم ولم تحل لأحد قبله وجعلت

---

(١) الكوثر نهر فى الجنة، وحوض فى الموقف، وأولهما يصب فى ثانيهما، وكذلك ورد فى الأحاديث الكثيرة الصحيحة، فروى أحمد ومسلم وغيرهما عن أنس قال: بينما رسول الله ﷺ بين أظهرنا فى المسجد إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً قلنا ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال {لقد أنزلت على أنفاً سورة، فقرأ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾(الكوثر:١-٣) ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربى ﷻ عليه خير كثير، وهو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آنيته عدد النجوم فى السماء، فيختلج العبد منهم، فأقول: يارب إنه من أمتى، فيقول: أنت لا تدرى ما أحدث بعدك} . وفى الصحيحين عن أنس عن النبى ﷺ قال{بينما أنا أسير فى الجنة ـــ يعنى ليلة الإسراء ـــ إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذى أعطاك ربك فإذا طينه مسك أزفر} .

قلت: تواترت أحاديث الكوثر والحوض إذ قد وردت من طريق ثمانين صحابياً كما فى فتح البارى، وقال القرطبى تبعاً لعياض، مما يجب على كل مكلف أن يعلمه ويصدق به أن الله تعالى قد خص نبيه محمداً ﷺ بالحوض المصرح باسمه وصفته وشرابه فى الأحاديث الصحيحة الشهيرة التى يحصل بمجموعها العلم القطعى، إلى أن قال، وأجمع على إثباته السلف وأهل السنة من الخلف وأنكرت ذلك طائفة من المبتدعة وأحالوه على ظاهره وغلوا فى تأويله من غير استحالة عقلية ولا عادية تلزم من حمله على ظاهره ولا حاجة تدعوا إلى تأويله فخرق من حرفه إجماع السلف وفارق مذهب أئمة الخلف اهـ، قلت وردت أحاديث تفيد أن لكل نبى يوم القيامة حوضاً يرده أتباعه وفى أسانيدها لين، قال الحافظ ابن حجر : وأن ثبت ذلك فالمختص بنبينا ﷺ الكوثر الذى يصب من مائة فى حوضه فإنه لم ينقل نظيره لغيره ووقع الامتنان عليه به فى سورة الكوثر اهـ .

(٢) فى الصحيحين عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول {نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ثم هذا يومهم الذى فرض عليهم ـــ يعنى يوم الجمعة ـــ فاختلفوا فيه فهدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع اليهود غداً والنصارى بعد غداً} . معنى الحديث أن الله فرض عليهم يوماً فى الأسبوع يعظمونه ويتعبدون فيه فوقع اختيارهم على يوم السبت، بل ورد عن السدى: أن الله فرض على اليهود الجمعة فأبوا، وقالوا: يا موسى أن الله لم يخلق يوم السبت شيئا فأجعله لنا فجعل عليهم، رواه ابن أبى حاتم، وهدانا الله للجمعة، كما صح عن ابن سيرين قال: جمع أهل المدينة قبل أن يقدمها رسول الله ﷺ وقبل أن تنزل الجمعة، فقالت الأنصار: إن لليهود يوماً يجتمعون فيه كل سبعة أيام، وللنصارى كذلك، فهلم فلنجعل يوماً نجتمع فيه فنذكر الله تعالى ونصلى ونشكره فجعلوه يوم العروبة، واجتمعوا إلى أسعد بن زراره فصلى بهم يومئذ وأنزل الله تعالى بعد ذلك ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾(الجمعة:٩)، رواه عبد الرازق بإسناد صحيح، العروبة بفتح العين اسم يوم الجمعة قبل الإسلام، وقوله {بيد أنهم} ـــ بفتح الباء والدال ـــ أى غير أنهم .

صفوف أمته كصفوف الملائكة، وجعلت له الأرض مسجداً وترابها طهوراً[١] وهذه الخصائص تدل على علو مرتبته والرفق بأمته .

٢٥ ــ ومنها : أن الله أثنى على خلقه فقال ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ (القلم: ٤)[٢] واستعظام العظماء للشيء يدل على إيغاله فى العظمة، فما الظن باستعظام أعظم العظماء .

٢٦ ــ ومنها : أن الله كلمة بأنواع الوحى وهى ثلاثة :

إحداها : الرؤيا الصادقة .

والثانى : الكلام من غير واسطة .

والثالث : مع جبريل عليه السلام[٣] .

---

(١) فى الصحيحين عن جابر أن النبى ﷺ قال {أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى وأعطيت الشفاعة وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة} وفى صحيح مسلم من حديث حذيفة {فضلنا على الناس بثلاث جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً وجعلت تربتها لنا طهوراً إذا لم نجد الماء} . قال: وذكر خصلة أخرى، وهذه الخصلة المبهمة بينها ابن أبى شيبة وابن خزيمة والنسائى وأبو نعيم والبيهقى وهى : {وأعطيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعط منه أحد قبلى ولا يعطى منه أحد بعدى} .

(٢) روى ابن جرير فى تفسيره عن سعد بن هشام قال أتيت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها فقلت لها أخبرينى بخلق رسول الله ﷺ فقالت كان خلقه القرآن أما تقرأ ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾(القلم: ٤) وفى صحيح مسلم نحوه من حديث طويل، وفى مسند أحمد عن قيس بن وهب عن رجل من بنى سواد قال: سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: أما تقرأ القرآن ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ وفى المسند أيضاً عن الحسن البصرى قال: سألت عائشة عن خلق رسول الله ﷺ فقالت كان خلقه القرآن، قال الحافظ ابن كثير: ومعنى أنه ﷺ صار امتثال القرآن أمراً ونهياً سجية له وخلقاً تطبعه وترك طبعه الجبلى فمهما أمره القرآن فعله ومهما نهاه عنه تركه هذا مع ما جبله الله تعالى من الخلق العظيم من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم وكل خلق جميل اهـ، ولله در القائل:

أرى كل مدح فى النبى مقصراً ... وإن بالغ المثنى عليه وأكثرا
إذا الله أثنى بالذى هو أهله ... عليه فما مقدار ما يمدح الورى ؟

(٣) أما الرؤيا ففي الصحيحين عن عائشة قالت: (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح) الحديث، وأما الكلام من غير واسطة فتقدم أنه كان ليلة الإسراء. وأما الوحي مع جبريل عليه السلام فهو غالب أحواله .

٢٧ ـ ومنها : أن كتابه ﷺ مشتمل على ما اشتملت عليه التوراة والإنجيل والزبور ـ وفضل بالمفصل [١] .

٢٨ ـ ومنها : أن أمته أقل عملاً ممن قبلهم وأكثر أجراً كما جاء في الحديث[٢] الصحيح .

٢٩ ـ ومنها : (أن الله عرض عليه مفاتيح كنوز الأرض وخيره بين أن يكون ملكاً أو نبياً عبداً ـ فاستشار جبريل فأشار عليه أن تواضع ـ فقال: بل نبياً عبداً أجوع يوماً وأشبع يوماً فإذا جعت دعوت الله وإذا شبعت شكرت)[٣] .

---

(١) روى أحمد والطبراني عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال {أعطيت مكان التوراة السبع وأعطيت مكان الزبور المئين وأعطيت مكان الإنجيل المثانى وفضلت بالمفصل} . وللطبرانى عن أبى إمامة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ {أعطانى ربى السبع الطوال مكان التوراة والمئين مكان الإنجيل وفضلت بالمفصل} فيه راو ضعيف، لكن صح عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: أن السبع الطوال مثل التوراة والمئين مثل الإنجيل والمثاني مثل الزبور، وسائر القرآن بعد . فضل، ومثل هذا لا يقال بالرأي فله حكم المرفوع، السبع الطوال من (أول البقرة وآخرها) مجموع (الأنفال) (وبراءة) لأنه لم يفصل بينهما في المصحف الإمام، وبعضهم عد (يونس) في الطوال ولم يعد (براءة والأنفال)، والأول أصح ثم ذات المائة وهي السورة التي فيها مائة آية ونحوها . ثم (المثاني) وهي ما كانت أقل من المائة وأكثر من الفصل ثم المفصل واختلف فيه فقيل يبتدئ من (الصافات) وقيل من سورة (الفتح) وقيل من سورة (ق) وقيل غير ذلك، ومنتهاه آخر القرآن بالاتفاق

(٢) وهو ما رواه البخارى عن عبد الله بن عمر ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول {إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس، أوتى أهل التوراة التوراة فعملوا بها حتى إذا أنتصف النهار عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً، وأوتى أهل الإنجيل الإنجيل فعملوا إلى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً، ثم أوتينا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس فأعطينا قيراطين قيراطين فقال أهل الكتابين أى ربنا أعطيت هؤلاء قيراطين قيراطين وأعطيتنا قيراطاً قيراطاً ونحن كنا أكثر عملاً قال الله تعالى ﴿ هل ظلمتكم من أجركم من شئ ﴾ قالوا :لا، قال : ﴿ هو فضلى أوتيه من أشاء﴾}. وروى البخارى أيضاً عن أبى موسى عن النبى ﷺ {مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملا إلى الليل فعملوا إلى نصف النهار فقالوا لا حاجة لنا إلى أجرك فاستأجر آخرين فقالوا أكملوا بقية يومكم ولكم الذى شرطت فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا لك ما عملنا فاستأجر قوماً فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس واستكملوا أجر الفريقين} وللحديث طرق وألفاظ فى الصحيحين .

(٣) فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ {نصرت بالرعب وأعطيت جوامع الكلم وبينما أنا نائم إذ جئ بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت بين يدى} . قال أبو هريرة : فقد ذهب رسول الله ﷺ وأنتم تنتثلونها، واخرج الطبرانى بسند حسن والبيهقى فى الزهد عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ ذات يوم وجبريل على الصفاء فقال {يا جبريل ما أمسى لآل محمد سفة من دقيق ولا كفة من سويق فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء فأتاه اسرافيل فقال: إن الله سمع ما ذكرت فبعثنى إليك بمفاتيح خزائن الأرض وأمرنى أن أعرض عليك أسير معك جبال تهامة زمرداً وياقوتا وذهبا وفضة فعلت فإن شئت نبياً ملكاً وإن شئت نبياً عبداً. فأومأ إليه جبريل أن تواضع، فقال: بل نبياً عبداً، ثلاثاً} . وأخرج ابن سعد وأبو =

قصد ﷺ أن يكون مشغولاً بالله فى طورى الشدة والرخاء والنعمة والبلاء .

٣٠ ـ ومنها : أن الله أرسله رحمة للعالمين فأمهل عصاة أمته ولم يعاجلهم إبقاء عليهم، بخلاف من تقدمه من الأنبياء فإنهم لما كذبوا عوجل مكذبهم(١) .

٣١ ـ وأما أخلاقه ﷺ فى حلمه وعفوه وصفحه وصبره وشكره ولينه فى الله، وأنه لم يغضب لنفسه، وأنه جاء بإتمام مكارم الأخلاق(٢) .

وما نقل من خشوعه، وخضوعه، وتبذله، وتواضعه فى مأكله ومشربه ومسكنه، وجميل عشرته، وكريم خليقته، وحسن سجيته، ونصحه لأمته، وحرصه على إيمان عشيرته، وقيامه بأعباء رسالته، ورأفته بالمؤمنين ورحمته، وغلظته على الكافرين وشدته، ومجاهدته فى نصرة دين الله وإعلاء كلمته وما لقيه من أذى قومه وغيرهم فى وطنه وغربته، فبعض هذه المناقب موجود فى كتاب الله، وبعضها موجود فى كتب شمائله وسيرته .

٣٢ ـ أما لينه ففى قوله تعالى ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ** ﴾(آل عمران: ١٥٩) .

= نعيم عن أبى إمامة عن النبى ﷺ قال {عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهباً فقلت لا يارب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك وإذا شبعت حمدتك وشكرتك} . وفى الباب أحاديث أخرى وإلى هذا أشار البوصيرى عليه الرضوان بقوله فى البردة :

وراودته الجبال الشم من ذهب … عن نفسه فأراها أيما شمم

(١) فى صحيح مسلم عن أبى موسى عن النبى ﷺ قال {إن الله ﷻ إذا أراد رحمة أمة من عبادة قبض نبيها قبلها فجعله لها فرضاً وسلفا بين يديها وإذا أراد هلكة أمة عذبها ونبيها حى فأهلكها وهو ينظر فأقر عينيه بهلكتها حين كذبوه وعصوا أمره} . الفرط بفتح الفاء والراء هو الذى يتقدم الواردة فيهيئ لهم الدلاء والحياض، يريد أنه يتقدم بين أيديهم يشفع فيهم وينفعهم كالذى يتقدم الواردة ففى الحديث استعارة حسنة وتجوز بديع، وقد قص الله تعالى فى كتابه الكريم ما عذب به الأمم السابقة حين كذبوا رسلهم وعصوا أمرهم، وقال لنبيه ﷺ ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾(الأنفال: ٣٣) فكان وجوده ﷺ مانعاً من نزول العذاب بالمكذبين من أمته، وهذا غاية الرحمة .

(٢) فى المسند بإسناد حسن عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ {إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق} وللحديث طرق وألفاظ فى جزء "مكارم الأخلاق" للخرائطى وهو مطبوع .

٣٣ ـــ وأما شدته على الكافرين ورحمته للمؤمنين فى قوله ﴿ **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾(الفتح:٢٩) .

٣٤ ـــ وأما حرصه على إيمان أمته ففى قوله ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ** ﴾(التوبة:١٢٨) أى يشق عليه ما عليكم ـ حريص عليكم ـ أى على إيمانكم .

٣٥ ـــ وأما نصحه فى أداء رسالته ففى قوله ﴿ **فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ** ﴾ (الذريات:٥٤) ولو قصر لتوجه إليه اللوم .

٣٦ ـــ ومنها : أن الله نزل أمته منزلة العدول من الحكام فإن الله إذا حكم بين العباد فجحدت الأمم تبليغ الرسالة أحضر أمة محمد ﷺ فيشهدون على الناس بأن رسلهم أبلغتهم[1] وهذه الخصوصية لم تثبت لأحد من الأنبياء .

٣٧ ـ ومنها : عصمة أمته بأنها لا تجتمع على ضلالة[2] فى فرع ولا فى أصل

---

(١) فى صحيح البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ {يدعى نوح يوم القيامة فيقول لبيك وسعديك يارب فيقول: هل بلغت ؟ فيقول: نعم فيقال لأمته: هل بلغكم ؟ فيقولون: ما أتانا من نذير ؟ فيقول: من يشهد لك ؟ فيقول: محمد وأمته فيشهدون أنه قد بلغ ويكون الرسول عليكم شهيداً فذلك قوله عز وجل ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً** ﴾(البقرة:١٤٣) والوسط العدل} . ورواه أحمد والنسائى وابن ماجه والإسماعيلى بلفظ {يجئ النبى يوم القيامة ومعه الرجل ويجئ النبى ومعه الرجلان ويجئ النبى ومعه أكثر من ذلك، فيقال لهم: أبلغكم هذا ؟ فيقولون: لا، فيقال للنبى: أبلغتهم ؟ فيقول: نعم، فيقال له: من يشهد لك؟} . وذكر الحديث كما ذكره البخارى وإسناده صحيح زاد فى آخره {فيقال: وما علمكم؟ فيقولون أخبرنا نبينا أن الرسل قد بلغوا فصدقناه} . وأخرج ابن أبى حاتم بسند جيد عن أبى بن كعب فى هذه الآية قال: {لتكونوا شهداء على الناس وكانوا شهداء على الناس يوم القيامة، كانوا شهداء على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وغيرهم إن رسلهم بلغتهم وإنهم كذبوا رسلهم} . وروى أيضاً عن جابر عن النبى ﷺ {ما من رجل من الأمم إلا ود أنه منا أيتها الأمة ما من نبى كذبه قومه إلا ونحن شهداؤه يوم القيامة أنه قد بلغ رسالة الله ونصح قومه} .

(٢) لأحاديث الحض على لزوم الجماعة وإتباع السواد الأعظم وأن الأمة لا تجتمع على ضلالة وأن يد الله على الجماعة وما فى هذا المعنى مما ورد عن النبى ﷺ من طرق تفيد التواتر فقد رواه عمر بن الخطاب وابنه عبد الله وابن عباس وأبو هريرة وأنس وأبو مالك الأشعرى وأبو بصرة الغفارى وحذيفة وأبو ذر ومعاذ وعجرفة وابن مسعود وأبو سعيد ومعاوية ورجل من الصحابة وأسامة بن شريك والحارث الأشعرى وأبو قرصافة وسمرة بن جندب وغيرهم وورد عن أبى مسعود موقوفاً وله حكم الرفع، وقد عزوت أحاديث هؤلاء فى كتابى (**الابتهاج بتخريج أحاديث المنهاج**) للبيضاوى فى علم الأصول .

٣٨ ــ ومنها : حفظ كتابه، فلو اجتمع الأولون والآخرون على أن يزيدوا فيه كلمة أو ينقصوا منه كلمة لعجزوا عن ذلك ولا يخفى ما وقع من التبديل فى التوراة والإنجيل[١] .

٣٩ ــ ومنها : أن الله ستر على من لم يتقبل عمله من أمته، وكان من قبلهم يقربون القرابين فتأكل النار ما تقبل منه وتدع ما لم يتقبل فيصبح صاحبه مفتضحا[٢] ولمثل ذلك قال الله تبارك وتعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧) وقال ﷺ {إنما أنا رحمة مهداه} . وقال {أنا نبى الرحمة}[٣] .

---

(١) أخرج البيهقى عن يحى بن أكثم قال: دخل يهودى على المأمون فتكلم فأحسن الكلام فدعاه المأمون إلى الإسلام فأبى، فلما كان بعد سنة جاءنا مسلماً فتكلم على الفقه فأحسن الكلام فقال له المأمون: ما كان سبب إسلامك قال: انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن هذه الأديان فعمدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فذدت فيها ونقصت وأدخلتها المعبد فاشتريت منى، وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فذدت فيها ونقصت وأدخلتها الكنيسة فاشتريت منى، وعمدت إلى القرآن فعملت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت وأدخلتها الوراقين فتصفحوها فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها، فعلمت أن هذا كتاب محفوظ فكان هذا سبب إسلامى، قال يحى بن أكتم فحججت تلك السنة فلقيت سفيان ابن عتيبة فذكرت له الحديث فقال لى مصداق هذا فى كتاب الله تعالى، قلت فى أى موضع قال فى قوله تعالى فى التوراة والإنجيل ﴿ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﴾(المائدة:٤٤) فجعل حفظه إليهم فضاع، وقال ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(الحجر:٩) فحفظه الله تعالى علينا فلم يضع .

(٢) كان هذا من شرائع الأمم السابقة كما قصه الله علينا فى كتابه الكريم بقوله تعالى ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ ﴾(آل عمران:١٨٣) وقال تعالى ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ﴾ (المائدة:٢٧) ورد فى التفسير أن النار نزلت على قربان هابيل، فأخذته وبذلك عرف قابيل أن قربانه لم يتقبل، وثبت فى بعض طرق حديث إحلال الغنائم، أن من قبلنا كانوا إذا غنموا غنائم جمعوها فتجئ نار فتأخذها فإذا حصل فيها غلول لم تأخذها النار .

(٣) أخرج ابن أبى حاتم وابن جرير والطبرانى والبيهقى عن ابن عباس، قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾(الأنبياء:١٠٧) قال: من آمن تمت له الرحمة فى الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن عوفى مما كان يصيب الأمم فى عاجل الدنيا من العذاب من الخسف والمسخ والقذف، وأخرج أبو نعيم عن أبى إمامة قال: قال رسول الله ﷺ {إن الله بعثنى رحمة للعالمين وهدى للمتقين} . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال: قيل يا رسول الله ألا تدعوا على المشركين ؟ قال {إنما بعثت رحمة ولم أبعث عذاباً} وفى المستدرك عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ {يا أيها الناس إنما أنا رحمة مهداه} صححه الحاكم على شرط الشيخين وسلمه الذهبى،وفى صحيح مسلم عن أبى موسى الأشعرى قال: كان رسول الله ﷺ يسمى لنا نفسه أسماء فقال {أنا محمد وأحمد والمقفى والحاشر ونبى التوبة ونبى الرحمة} .

٤٠ ـ ومنها : أنه بعث بجوامع الكلم واختصر له الحديث اختصارا[١] وفاق العرب فى فصاحته وبلاغته، وكما فضله الله على أنبيائه ورسله من البشر، فكذلك فضله على من اصطفاه من رسله من أهل السماء[٢] ملائكته، لأن أفاضل البشر أفضل من الملائكة لقوله تعالى ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ** ﴾(البينة: ٧) والملائكة من جملة البرية لأن البرية: الخليقة، مأخوذة من برأ الله الخلق أى أخترعه وأوجده .

ولا تدخل الملائكة فى قوله ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ لأن هذا اللفظ مختص بعرف الاستعمال بمن آمن من البشر، بدليل أنه هو المتبادر إلى الإفهام على الإطلاق .

فإن قيل: البرية مأخوذة من البرى وهو التراب، والبشر مخلوق من التراب، فكأنه قال، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البشر، فالجواب من وجهين :

---

(١) تقدم حديث الصحيحين فى أنه أعطى جوامع الكلم، وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال {فضلت على الأنبياء بست أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب وأحلت لى الغنائم وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بى النبيون} . وروى ابن شيبة فى مسنده وأبو يعلى عن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ {أعطيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه} . إسناده حسن، وفى مسند أبى يعلى بإسناد حسن أيضاً عن عمر ﷺ عن النبى ﷺ {أعطيت جوامع الكلم وأختصر لى الكلام اختصارا} . اختلف فى جوامع الكلم فقال جماعة: هو القرآن، وقال الزهرى: بلغنى أن جوامع الكلم أن الله تعالى يجمع له الأمور الكثيرة التى كانت تكتب فى الوحى قبله، فى الأمر الواحد، والأمرين أو نحو ذلك، ومعنى هذا أنه أعطى الكلمات البليغة الوجيزة الجامعة للمعانى الكثيرة وتصح إرادة الكل كما لا يخفى، وفواتح الكلم حسن التوصل إلى غموض المعانى التى أغلقت على غيره، وخواتمه ختم الكلام بمقطع وجيز بليغ جامع، ومعنى هذا كما قال القرطبى وغيره أن كلامه ﷺ من مبدئه إلى خاتمته كله بليغ وجيز جامع، ولا غرو فهو ﷺ أفصح العرب لسانا وأبلغهم كلاماً وأعذبهم منطقاً .

(٢) أخرج أبو يعلى والطبرانى والبيهقى عن ابن عباس ﷺ قال: إن الله تعالى فضل محمداً ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء، قالوا: يا ابن عباس فما فضله على أهل السماء قال إن الله تعالى قال لأهل السماء ﴿ **وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ** ﴾(الأنبياء: ٢٩) وقال لمحمد ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** ﴾(الفتح: ١-٢) فقد كتب له براءة، قالوا: فما فضله على الأنبياء ؟ قال: أن الله تعالى قال ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ** ﴾ (إبراهيم: ٤) وقال لمحمد ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ** ﴾(سبأ: ٢٨) فأرسله إلى الأنس والجن .

الوجـه الأول : أن أئمـة اللغـة قـد عـدوا البرية فى جملة ما تركت العرب همزة .

الوجـه الـثانى : وهـو الأظهـر ـ أن نافعاً قرأ بالهمزة، فكلا القراءتين كلام الله، فـإن كانـت إحـدى القـراءتين قـد فضلت الذين آمنوا وعملوا الصالحات على سائر البشر، فقد فضلتهم القراءة الأخرى على سائر الخلق .

وإذا ثبـت أن أفاضل البشر أفضل من الملائكة[1] فالأنبياء صلوات الله عليهم

---

(١) هـذا عـلى مذهـب الأشـاعرة وعـزاه الحافظ فى الفتح إلى جمهور أهل السنة، والآية التى استدل بها المؤلف على ذلـك، اسـتدل بهـا أيضاً أبو هريرة وطائفة من العلماء، والذى نعتقده وندين الله عليه أن الملائكة أفضل من جميع بـنى آدم مـاعدا الأنبـياء علـيهم السلام، وأن أفاضل البشر كأبى بكر ﷺ لا يبلغون درجة ملك من الملائكة عليهم السـلام فضـلاً عن أن يكونوا أفضل منه، أما الأنبياء فهم أفضل من الملائكة على مذهب جمهور أهل السنة، لأدلة مبسـوطة فـى محـلها مـن كتـب التوحـيد، ومن الدليل على تفضيل الملائكة على غير الأنبياء قوله تعالى ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَـةِ رُسُـلاً ﴾(فاطر:١) وغـير الرسول لا يكون أفضل من الرسول إجماعاً، وقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْـنَاهُمْ فِـي الْـبَرِّ وَالْـبَحْرِ وَرَزَقْـنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾(الاسراء:٧٠) ولا شـك أن بنى آدم أفضل من الجن والحيوان بلا نزاع، ولو كانوا أفضل من الملائكة لقال تعالى وفضلناهم على جميع مـن خلقـنا تفضـيلاً، لكـنه عـبر بكـثير لـينص عـلى إخراج الملائكة وأنهم أعلى من أن يدخلوا فى هذه المفاضلة، وأخـبار الله عـنهم فـى غـير آيـة بـأنهم مكـرمون لا يعصـمون الله أمـرهم ويفعلون ما يؤمرون وأنهم يسبحون الليل والـنهار لا يفـترون وأنهم من الله مقربون، وأفاضل البشر تجوز عليهم المعاصى ولهم فترات يغفلون فيها عن عبادة الله، وقولـه تعـالى فى الحديث الصحيح القدسى ﴿ **أنا عند حسن ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكـرنى فإن ذكرنى فـى نفسـه ذكـرته فـى نفسى وإن ذكرنى فى ملاء ذكرته فـى ملاء خيراً منهم** ﴾ قال ابن بطال ـ فى قوله ـ ذكـرته فـى مـلاء خير منهم وهذا نص فى أن الملائكة أفضل من بنى آدم وهو مذهب جمهور أهل العلم وعلى ذلك شـواهد القـرآن مـثل ﴿ إِلَّـا أَنْ تَكُونَـا مَلَكَـيْنِ أَوْ تَكُونَـا مِـنَ الْخَـالِدِينَ ﴾(الأعراف:٢٠) والخـالد أفضل من الفانى فالملائكـة أفضـل مـن بـنى آدم اهــ، وتعقـبه الحافظ متمشياً مع رأى الأشاعرة، وهذا من هفواته رحمه الله ورضى عـنه، وفـى المسـألة أدلـة أخـرى لبسـطها موضـع غير هذا، ومن اللطائف فى هذا الباب أن القاضى أبا البركات محمـد بـن الحـاج السلمى ـ وهو من شيوخ بن خلدون ـ استدل على تفضيل الملائكة بأن الله أسجدهم لآدم، فنظر بعـض الحاضرين إلى بعض وقال جن القاضى: أتقولون أن أمر الله الملائكة السجود لآدم أمر ابتلاء واختبار؟ قالوا: نعـم، قـال: أفيختـبر تواضـع العبد بالخضوع لسيده؟ أم الأمر بالعكس؟ قالوا: إنما يختبر تواضع السيد بالخضوع لعـبده، قـال: فكـذا الملائكـة وآدم لـو لم يكونوا أفضل منه ما أختبر حالهم بالأمر بالسجود له فأذعنوا لذلك اهـ، نقلـه فـى نفـح الطيب، ونظر فيه ابن الحاج فى حاشية المرشد المعين بأن الظاهر أن السجود إكرام لا اختبار اهـ، وفـى التـنظير نظـراً لأنـه لا مـانع أن يكـون السـجود إكـراماً وتحية لآدم واختبار للملائكة، بل أوامر الله كلها لا تخلـوا أن تكـون اختبارات من الله لعباده، وإن كانت فى الوقت نفسه تشتمل على حكم ومصالح للعباد، يؤيد ما ذكـرناه أن الملائكـة مخلوقـون من نور كما جاء فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ {خلقـت الملائكـة مـن نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم} . ولا شك أن النور أفضل مـن الـتراب فكـان سـجودهم لآدم امـتحان أى امتحان، ولولا أنهم معصومون لقالوا كما قال إبليس لعنه الله ـ وهو من الجان ـ ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾(الأعراف:١٢) وهذا وأضح لا خفاء فيه.

أفضل الذين آمنوا وعملوا الصالحات، بدليل قوله تعالى بعد ذكر جماعة من الأنبياء ﴿ وَكُلّاً فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾(الأنعام:٨٦) فدلت هذه الآية على أنهم أفضل البشر، وأفضل من الملائكة، لأن الملائكة من العالمين ـ سواء كان العالم مشتقاً من العلم أو من العلامة .

وإذا كانت الأنبياء أفضل من الملائكة، ورسول الله ﷺ أفضل من الأنبياء، فقد ساد سادات الملائكة فصار أفضل من الملائكة بدرجتين، وأعلى منهم برتبتين[1] لا يعلم قدر تلك الرتبتين، وشرف تلك الدرجتين إلا من فضل خاتم النبيين وسيد المرسلين، على جميع العالمين

وهذه لمع وإشارات يكفى العاقل الفطن بمثلها، بل ببعضها .

ونحن نسأل الله بمنه وكرمه أن يوفقنا لا تباع رسوله فى سنته وطريقته، وجميع أخلاقه الظاهرة والباطنة وأن يجعلنا من أحزابه وأنصاره، آمين يارب العالمين .

* * * * * *

(١) هذا على ما مشى عليه المؤلف أما علي ما اخترناه وهو الراجح فيكون النبى ﷺ أفضل من الملائكة بدرجة وأعلى منهم برتبة، وكفى بذلك شرفاً وفخراً .

خـــاتمة :

قـال الإمـام أبـو سعد النيسابورى فى كتاب (شرف المصطفى) . الفضائل الـتى فضـل بهـا النبى ﷺ على سائر الأنبياء ستون خصلة اهـ، وقال الحافظ: لم أقـف عـلى مـن عدهـا وقـد تتبعت الأحاديث والآثار فوجدت القدر المذكور وثلاثة أمثاله معه وقد رأيتها أربعة أقسام :

١ ـ قسم اختص به فى ذاته فى الدنيا .

٢ ـ وقسم اختص به فى ذاته فى الآخرة .

٣ ـ وقسم أختص به فى أمته فى الدنيا .

٤ ـ وقسم اختص به فى أمته فى الآخرة، اهـ .

ثم سردها مفصلة فى كتاب (الخصائص الكبرى) وهو مطبوع فى الهند فى مجلدين فليراجع .

وهـذا أخـر مـا أردنا كتابته على هذه الرسالة المباركة، نسأل اللهِ أن يجعله عمـلاً متقـبلاً وأن يكون سبباً نتوسل به لدى نبيه الكريم عسى أن يشملنا بشفاعته الخاصة فى الموقف العظيم :

إن لم يكن فى معادى أخذاً بيدى   فضلاً وإلا فقل يا زلة القدم

والحمـد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيه شفيع الخلق أجمعين، وعلى آله الأكرمين، وصحابته والتابعين .

* * * * *

تم بحمد الله كتاب

بداية السول فى تفضيل الرسول